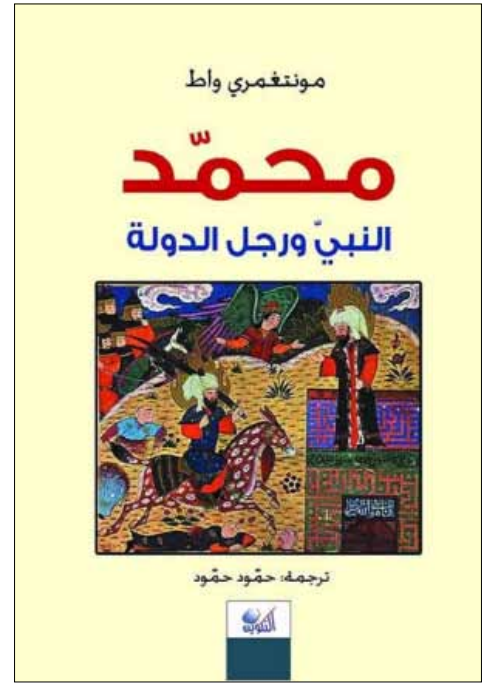


كتب

بحث

كتاب هونتغمري عن شخصية الرسول أخيراً إلى العربية



يقع الباحث الاسكتلندي بين نهاية الاستشراق الكلاسيكي وبداية الاستشراق الحديث. اشتهر بكتابه «محمد في مكة» و«محمد في المدينة» قبل أن يصدر في الستينيات «محمد: النبي ورجل الدولة». العمل الأخير انتقل إلى لغة الضاد عن «دار التكوين» (ترجمة حمود حمود) ليقدم قراءة نقدية وسوسولوجية لمسيرة الرسول ورجل الدولة

ريتا فرج

يعتبر الاسكتلندي مونتهغمري واط (1909 - 2006) من المستشرقين الذين كانت لهم دراسات موضوعية حول الإسلام. وضع مجموعة من الكتب أصبحت مراجع علمية، تعكس رؤية نقدية ومحادية تنبذ إلى حد ما عن أطروحات الاستشراق الكلاسيكي.

اشتهر واط بكتابه «محمد في مكة» (1953) و«محمد في المدينة» (1956). بعد خمس سنوات، نشر «محمد: النبي ورجل الدولة» (1961) وبقي في رفوف المكتبة الإنكليزية حتى نقل أخيراً إلى لغة الضاد (دار التكوين، دمشق - 2014). بذل الباحث السوري حمود حمود جهداً كبيراً في ترجمته وتحقيقه لا سيما في القضايا المهمة إذ كانت الحواشي متناسبة مع المتن الأصلي.

يعتمد واط على منهج النقدي التاريخي الذي استفاد من المستشرق الألماني الشهير ثيودور نولدكه (1836 - 1930). ليست المادة عملاً توثيقياً خالصاً، بل هي قراءة نقدية وسوسولوجية لمسيرة محمد النبي ورجل الدولة. يرتكز الكتاب على فكرة عنصرية الرسول الدينية والسياسية والدبلوماسية في الحقيقتين مكة والمدينة. يضعنا في الإطار الزمني والتاريخي لظهور الإسلام في الجزيرة العربية إبان التنافس بين القوى العظمى، أي الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية. في محاولته لفهم رسالة محمد، بحيثنا بالسياق الديني للدعوة وتطورها الروحي ضمن بيئة مضطربة دينياً، أطلق عليها واط «التوحيد الغامض» الذي آمن به بعض المكين المتخوريين بفعل التأثير اليهودي - المسيحي، قاصداً بذلك الحنفاء حيث يفترض أن محمداً آمن به منذ بداياته.

يدرس واط الإرهصاص الأولية التي رافقت انبعثات الإسلام. يخلص في تحليله الوضع الاجتماعي للمسلمين الأوائل إلى أنهم كانوا من الشبان الأقوياء والأشخاص الضعفاء (كلمة ضعيف تعني من دون حماية جيدة من العشيرة) وليسوا من العوام أو أعضاء الطبقات الدنيا، كما تشير بعض المصادر. ما يعني أنّ الحركة الإسلامية الوليدة كانت حركة شبابية وافدة من طبقة من المجتمع تلي مباشرة الطبقة الرفيعة التي تشكلت مع الازدهار التجاري المتنامي الذي عرفته مكة. ينظر واط إلى النصوص المبكرة في القرآن باعتبارها تقف وتقاطع

مع التراث التوحيدي اليهودي - المسيحي بمفاهيمه عن الله والخالق والقيامة والحكم والوحي. أما النصوص اللاحقة، فيظهر الاعتماد فيها على تراث الكتاب المقدس بشكل أكثر وضوحاً ودلالة، ذلك أنّها تتضمن الكثير من المواد من العهدين القديم والجديد. هذا الاستنتاج يحيلنا على إشكالية التناسق بين النصوص المقدسة تحديداً على مستوى القصص القرآني. تحدث المفكر الجزائري محمد أركون (1928 - 2010) ضمن مشروعه الكبير «نقد الفكر الإسلامي» عن «التداخلية النصانية» بين القرآن والنصوص الأخرى التي سبقته. المدة الطويلة جداً عنده تشمل ليس فقط التوراة والإنجيل، وهما المجموعتان النصيتان الكبيرتان اللتان تمتعتان بحضور كثيف في القرآن، بل ينبغي أن تشمل أيضاً الذاكرات الجماعية الدينية الثقافية للشرق الأوسط القديم.

في مقارنته علاقة القرآن بسياقه الاجتماعي، يرى واط أن الوضع الذي انبثق منه الإسلام تقاطع مع التناقض والصراع بين موقف المكين الذين يحملون الرؤية الدبوية، وبين الأوضاع المستجدة التي خلقتها البيئة المادية التي وجدوا أنفسهم فيها. يفترض أن نمو النزعة الفردانية التي أخذت تحل محل التضامن القبلي في مكة نتيجة الازدهار الاقتصادي، دفعت الخطاب القرآني نحو المطالبة بمساعدة أفراد المجتمع والاهتمام بالضعفاء والفقراء. تخوف تجار مكة النافذون من الدين الجديد، فنظروا إليه بوصفه تهديداً لمصالحهم ما قد يؤدي إلى تجاهل قدسية مكة، وتالياً الحط من تجارتها أو تدميرها.

بمعالج واط موضوع «الآيات الشيطانية» وإبطالها، ويجري نوعاً من التحليل السياقي لها. يتناول الجدل الفكري بين محمد ومعارضيه طوال الفترة التي أمضاها في مكة. تمحور الجدل حول ثلاث قضايا: بعث الأجساد يوم القيامة التي لم يكن المكين يعتبرونها منطقية،

هجوم القرآن على الأوثان في حين أن الوثنيين اتخذوا موقفاً دفاعياً، وانتقادات لمكانة محمد كونه رسول الله. يستفيض واط في تحليل بنية الصراع الاجتماعي والسياسي والديني بين الرسول وأعدائه زمن النبوة، في المرحلتين مكة والمدينة. الأهم في البنية التحليلية التي قدمها قوله إن محمداً تمكن بقدرته الإبداعية كنبى ورجل دولة من تجاوز مخاطر عدة هددت دعوته والجماعة المؤمنة. ويعرض الباحث بشيء من التفصيل تاريخ الهجرة إلى المدينة والمشاكل التي واجهت محمد والمسلمين. ويلحظ أنّ عرب يثرب تأثروا بالأفكار اليهودية عن موعد مجيء المسيح المخلص وكانوا على استعداد لقبول الدين الوليد. يتناول واط عداء اليهود لمحمد ومعارضتهم لرسالته التوحيدية

لم يكن المسلمون الاوائل من العوام أو اعضاء الطبقات الدنيا

وتخوفهم على نفوذهم السياسي. لعل الجانب الفكري في الخلاف هو الأكثر أهمية. كانوا يهاجمون كل ما بنى عليه محمد رسالته من أفكار، إذ أكدوا أنّ بعض الأمور التي جاء بها القرآن تتناقض مع العهد القديم الذي بحوزتهم، وعليه فالقرآن ليس وحياً ومحمد ليس نبياً.

في موازاة البعد العقائدي، دعم اليهود المكين في حربهم ضد محمد، ما أدى على فترات متلاحقة إلى طردهم رغم أنّ الرسول سعى بداية إلى الصلح معهم. يطرح واط سؤالاً افتراضياً: ماذا كان سيحدث لليهود لو أنهم قبلوا بشروط محمد

بدلاً من معارضته؟ كانوا في فترات محددة سيحصلون على العديد من الشروط التي تقف في صالحهم بما في ذلك استقلالهم الديني. وبناء على ذلك، يغدو اليهود مشاركين في الامبراطورية العربية. كم كان وجه العالم سيتغير لو أنّ ذلك قد حدث؟ يجري واط رسداً لتداعيات «غزوة أحد» بين المسلمين في يثرب وأهل مكة من قريش وبعض كنانة والأحباش وثقف. من بين الموضوعات التي يدرسها أيضاً الإصلاحات التي أجراها محمد على مستوى الزواج والميراث نتيجة التحولات التي فرضتها الغزوة.

يحدد صاحب «تاريخ إسبانيا الإسلامية» الموصفات الذاتية التي ساعدت محمد على نشر الإسلام وبناء نفوذه السياسي. كان بصيراً قدام للعرب هيكلاً من الأفكار وحلولاً للتوترات الاجتماعية التي كانت قائمة بينهم وغُبر عنها قرآنيًا، واتصف بحكمته كرجل سياسي وبمهارة وبراعة إدارية.

يتساءل واط في ختام كتابه: هل محمد نبي؟ كان يملك دققاً من الخيال المبدع الذي قد نجده في حالات ملحوظة عند الفنانين والشعراء والكتاب. ولا بد من التأكيد - كما يخلص المؤلف - إلى أن الأنبياء يشتركون في ذلك. لقد كان رجلاً يعمل فيه الخيال المبدع في مستويات عميقة ذات صلة بالقضايا الحقيقية للوجود الإنساني. يذكرنا واط بالتفسير الذي خرج به المفكر الإيراني عبد الكريم سروش الذي اعتبر الوحي هو الإلهام والتجربة نفسها يخضع لها الشعراء والمتصوفة، ورأى الوحي نابعاً من الإلهام من «نفس» النبي و«نفس» كل إنسان إلهية. يختلف النبي عن الآخرين، بأنه أدرك إلهية هذه النفس، وحول هذه الحالة من القوة إلى الفعل، فأتحدث بنفسه مع الله. كتب الكثير عن محمد ورسالته، وبمقدار ما يحظى هذا التاريخ من استدراقات كثيرة ومتشعبة بمقدار ما ينم عن جاذبية الإسلام ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

مراسلات

أنطونيو غرامشي... حياة في السجن

خليك صويلح

أمضى أنطونيو غرامشي (1891-1937) 11 عاماً في السجن، كتب خلالها 32 دفترًا، رافقته من معتقل إلى آخر. لم يأنه المفكر الشيوعي الإيطالي اللامع لشروط المعتقل السيئة، رغم وضعه الصحي الهش. الحملات الاحتجاجية العالمية التي أطلقت من أجل حريته، لم تحرك ساكناً لدى السلطة الفاشية الإيطالية. في زنتانته، سنّ لنفسه خطة عمل لمشروعه الفكري، رغم غياب الوثائق التي كان يحتاجها، معتمداً على ذاكرته وحدها، في ترميم أفكاره. هكذا، أنجز 3 آلاف صفحة مكتوبة بخط اليد، تجول خلالها، بين موضوعات مختلفة، تتعلّق بدور المثقف، والإصلاح، وعصر النهضة، ومكيا فيلي، ودانتشي، والعلمانية، والمجتمع المدني، والفلكلور والأدب. في السجن، كتب رسائل إلى أمه وأصدقائه وعائلته، نُشرت للمرة

الأولى عام 1947. ها هي تصدر بنسختها العربية أخيراً بعنوان «رسائل السجن: رسائل أنطونيو غرامشي إلى أمه» (دار طوى، لندن). تعريب سعيد بوكرامي) وهي الجزء الأول من سلسلة ستصدر تبعاً. خلال تدوين كراساته، كان غرامشي يستكمل نضاله الثوري، في فترة ما قبل اعتقاله، معتبراً الكراسات «بؤرة حياتي الداخلية». وحين صدرت بعد رحيله، في سنة مجلدات، وجد فيها المثقفون إلهاماً قوياً، وجّه أفكارهم إلى مفاهيم جديدة، في ما يخص معنى المثقف العضوي المنخرط في الشأن العام، إذ بنى أفكاره على خلطة من أفكار ماركس ومكيا فيلي وهيغل، ولو بنبرة سجالية مفارقة. في رسائله إلى أمه، سعى إلى أن يبدو متماسكاً ومرحاً كي لا تقلق عليه: «لدي سرير لا بأس به، يتوفر أيضاً لدي مرآة حيث أنظر إلى نفسي، وآلة لتسخين الأكل وإعداد القهوة». لا يغفل هذا المفكر والسياسيولوجي المنفرد، في رسائله

هذه عن طمأننة والدته عن زوجته وأولاده الذين كانوا يعيشون في مكان آخر. وكما يبدو مسروراً، حين تحصل رسالة من أحدهم، أو صورة شخصية، كما بشرح لأمه تصورات عن نفسه في محاربة الفاشية، بشكل موارب، إذ يشبه موسوليني بالطفل الكبير الذي يهدد بالتبول في فراشه. في رسالة لاحقة. في هذه الأثناء، أصيبت زوجته جوليا بمرض عصبي، ثم سافرت إلى موسكو، ولم تتمكن من العودة، فيما كانت شقيقته «تاتانيا» تواظب على زيارته في السجن، رغم مرضها. ويعود إليها الفضل في حفظ دفاتره المكتوبة في السجن. اللافت هنا أن غرامشي المريض، حاول رفع معنويات الآخرين في الخارج، ونبه أمه ألا تصدق العبت الذي تنشره الجرائد عنه، نافية التهمة التي ستوجه إليه في المحاكمة المقبلة في روما (1928)، إذ يؤكد أن التهمة ضده تستند إلى تقارير غامضة للشرطة، من دون



يعد العمل الجزء الأول من السلسلة التي تعربها وتصدرها «دار طوى» تبعاً

أدلة، وهو لن يهزم أو يأس، رغم محاولات الإنزال (لم يكن بنام أكثر من ساعتين في اليوم، وكان عندما يستسلم لغفوة صغيرة، يتولى الحارس الذي تلقى الأوامر بإزعاجه، فتح وإغلاق باب الزنزانة محدثاً ضوضاء متعمدة). في الزنزانة رقم 7047 في سجن «تورينو»، أمضى غرامشي سنواته الأخيرة. تبلور مشروعه الفكري بين جدران زنزانته، دفترًا وراء الآخر، وبدلاً من الاستكاسة إلى النظرية الماركسية الجامدة، وقف على مسافة من الستالينية، وفي الوقت نفسه اختط منهجه الخاص في علم الاجتماع المفارق لمدرسة فرانكفورت النقدية. من القلق والارتباك في فترة اعتقاله الأولى، إلى الصبر والانهمك في العمل الفكري، حاول تجاوز محتته. لكن في رسالته الأخيرة، بدا كأنه نفذ صبره، إذ يشير عرضاً إلى أنه كان مهتداً دوماً، وأن صحته ليست على ما يرام. لم يكمل محكومته، فقد مات تحت التعذيب.